السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(١١)

مُقَدِّمَاتُ نُزُوْلِ الوَحْي..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

بَقَايَا الحُنَفَاءِ

لَمْ يَخْلُ العَهْدُ الجَاهِلِيُّ مِنْ وُجُوْدِ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ مِنَ النَّاسِ تَدِيْنُ بِدِيْنِ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَهُمُ الَّذِيْنَ أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ تَسْمِيَةَ الحُنَفَاءِ أَوِ الأَحْنَافِ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] .

وقد أَنْكَرَ أولئك القِلَّةُ الحُنَفَاءُ مَسْأَلَةَ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، حَتَّىٰ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : يَا قَوْمُ تَعَلَّمُوا ،

---

(١) سورة البقرة : ١٢٥ .

فَأَنْتُم لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، لَقَدْ أَخْطَأْتُمْ دِيْنَ أَبِيْكُمْ إِبْرَاهِيْمَ . فَمَا حَجَرٌ نُطِيْفُ بِهِ ، لا يَسْمَعُ ، وَلا يُبْصِرُ ، وَلا يَضُرُّ ، ولا يَنْفَعُ! يَا قَوْمُ التَمِسُوا لأَنْفُسِكُم ، فَإِنَّكُم وَاللهِ مَا أَنْتُم عَلَى شيءٍ ، فَتَفَرَّقُوا في البُلْدَان ، والتَمَسُوا مَا بَقِيَ مِنْ دِيْنِ الأَنْبِيَاءِ...

وَمِنْ أَبْرَزِ الحُنَفَاء : زَيْدُ بْنُ عَمْرو بْنِ نُفَيْل ، فَكَانَ إِذَا اسْتَقْبَل الكَعْبَةَ دَاخِلَ المَسْجِدِ ؛ قَالَ : لَبَّيْك حَقًّاً حقًّاً ، تَعَبُّداً وَرِقًّاً ، عُذْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيْمُ مُسْتَقْبِلَ الكعبة .

وَكَانَ كَثِيْراً مَا يُرَدِّدُ قَوْلَهُ وَهُوَ يُخاطِبُ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ

لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا

وَكَانَ يَعِيبُ عَلَىٰ قُرَيشٍ ذَبَائِحَهُمْ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْها غَيْرَ اسْمِ اللهِ ، فَكَانَ يَقُوْلُ : الشَّاةُ خَلَقَها اللهُ ، وَأَنْزَلَ لَنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، وَأَنْبَتَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ ، ثُمَّ تَذْبَحُونها عَلىٰ غَيْرِ اسْمِ اللهِ!!

... وَكَانَ يَدْعُو ـ وَهُوَ في حَيْرَتِهِ ـ قَائِلاً : اللهُمَّ! لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَيَّ الوُجُوْهِ أحَبَّ إِلَيْكَ ؛ عَبَدْتُكَ بِهِ ، وَلَـٰكِنِّي لاَ أَعْلَمُهُ ، ثَمَّ يَسْجُدُ علىٰ رَاحِلَتِهِ .

وَمَاتَ زَيْدٌ قُبَيْلَ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ ، لَـٰكِنَّ النَّبيَّ ﷺ عِنْدَمَا سُئِل عَنْهُ أَجَابَ : « غَفَرَ اللهُ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو ، وَرَحِمَهُ! فَإِنَّهُ مَاتَ عَلَىٰ دِيْنِ إِبْرَاهِيْمَ » .

وَمِنْهُم أَيْضاً قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الإِيَادِيُّ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ بَوَاقِي الحُنَفَاءِ .

يَقُولُ الرَّسُول ﷺ : « لَقَدْ شَهِدْتُه في المَوْسِمِ بِعُكَاظَ وَهُوَ علىٰ نَاقَةٍ حَمْراءَ ، وَهُوَ يُنَادِي في النَّاسِ : أَيُّها النَّاسُ ، اجْتَمِعُوا ، وَاسْتَمِعُوا ، وَعُوا ، واتَّعِظُوا ؛ تَنْتَفِعُوا : مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آت ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ في السَّمَاءِ لَخَبَراً ، وَإِنّ في الأَرْضِ لَعِبَرَاً ، نُجُومٌ تَغُوْرُ ، وَلا تَغُوْرُ ، وتَفُوْرُ وَلا تَفُوْرُ ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَمِهَادٌ مَوْضُوعٌ ، وَأَنْهَار مَنْبُوعٌ ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَماً بِاللهِ لا كَذِباً وَلا إِثْماً : ليتبعَنَّ الأمْرَ سَخَطٌ ؛ وَلَئِنْ كَانَ في بَعْضِهِ رِضَاً ، إِنَّ في بَعْضِهِ لَسَخَطاً ، وَمَا هَذَا بِاللَّعِب ، وَإِنَّ مِنْ وَرَاءِ هَذَا لَلْعَجَبَ ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَماً بِالله لا كَذِباً ، وَلا إِثْمَاً : إِنَّ للهِ دِيْناً هُوَ أَرْضَىٰ لَهُ مِنْ دِيْنٍ نَحْنُ عَلَيْهِ ، مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ ، وَلاَ يَرْجِعُوْنَ ؟

أَرَضُوا فَأَقَامُوا ، أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا... ؟ » .

وكان قُسٌّ يُنْشِدُ الشِّعْرَ وَهُوَ يَتَحدَّثُ عَنْ بَعْض أُمُوْرِ الحَيَاةِ الآخِرَةِ ، منها :

فِـــي الـــذَّاهِبِيْـــنَ الأَوَّلِيْـــنَ
مِـــنَ القُـــرُونِ لَنَـــا بَصَـــائِـــرْ
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ مَـــوَارِدَاً لِلْمَـــوْ
تِ لَيْـــسَ لَهَـــا مَصَـــادِرْ
وَرَأَيْـــتُ قَـــوْمِـــي نَحْـــوَهَـــا
تَمْضِـــي الأَكَـــابِـــرُ وَالأَصَـــاغِـــرْ
لا يَـــرْجِـــعُ المـــاضِـــي إِلَـــيَّ
وَلا مِـــنَ البَـــاقِيْـــنَ غَـــابِـــرْ
أَيْقَنْـــتُ أَنِّـــي لا مَحَـــالَـــةَ
حَيْـــثُ صَـــارَ القَـــوْمُ صَـــائِـــرْ

* * *

مَتَىٰ كُنْتَ نَبِيّاً ؟!

تَعَالَوْا يَا أحِبَّتِي البَرَاعِمَ لِنَرىٰ بِدَاية النُّبُوَّةِ ، سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ : يَا رَسُول الله! مَتَىٰ كُنْتَ نَبِيّاً ؟

فَقَالَ : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوْحِ وَالجَسَدِ » .

وَفِي رِوايَةٍ أُخْرَىٰ : أَقْبَل أَعْرَابيٌّ حَتَّى أتىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَه خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : أَلا تُعْطِينِي شَيْئاً أَتَعَلَّمُهُ ، وَأَحْمِلُهُ ، وَيَنْفَعُني ، وَلا يَضُرُّكَ ؟

فَقَالَ النَّاسُ : مَهْ ـ أَيْ : اسْكُتْ ـ اجْلِسْ .

فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « دَعُوْهُ ، فَإِنَّما يَسْأَلُ الرَّجُلُ لِيُعَلَّم » .

فَأَفْسَحُوا لَهُ حَتَّىٰ جَلَسَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَوَّلَ نبوّتك ؟

قَالَ : « أَخَذَ اللهُ مِنِّي المِيْثَاقَ كَمَا أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّين مِيْثَاقَهُمْ » ثُمَّ تَلا : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[1] .

* * *

(١) سورة الأحزاب : ٧ .

هَذَا عَمَلٌ سَيِّىءٌ!!

وَمُنْذُ بِدَايَاتِ شَبَابِ الرَّسُول ﷺ حَفِظَهُ الله تَعَالَى ، وَعَصَمَهُ ، فَهُوَ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ شُرْبُ الخَمْرِ ، ولا لَعِبُ القِمَارِ ، وَلا حُضُورُ مَجَالِسِ الغِنَاءِ والفُسُوقِ ، وَلا السُّجُودُ لِصَنَمٍ ، وَلا وَثَنٍ .

بَلْ كَانَ كَثِيْرَ التَّفَكُّرِ في آلاءِ اللهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ . وَكَانَ كَثِيْراً ما يَتَسَاءَلُ : كَيْفَ يسجد هَذَا الإنْسَانُ لِحَجَرٍ ، أَوْ خَشَبَةٍ ، أَوْ... ، وَهُوَ الَّذِيْ يَصْنَعُها بِيَدَيْهِ ؟!

وَكَانَ يَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ لِمَا فِيْهِ المُجْتَمَعُ الجاهِلِيُّ ، وَلَكِنْ حَتَّىٰ يَشَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

* * *

مُقَدِّمَاتُ نُزُوْلِ الوَحْي

وَأَصْبَحَ الرَّسُولُ ـ صَلَواتُ اللهِ وَسلامَهُ عَلَيْهِ ـ في وَضْعٍ عَجِيْبٍ ، إِلىٰ حدٍّ كَانَ يَتَمَنَّىٰ فِيْهِ أَنْ لا يَكُوْنَ حَيَّاً ، مِثَالُ ذَلِكَ :

تَسْلِيْمُ الحَجَرِ ، والشَّجَرِ عَلَيْهِ ﷺ ، فَعَن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُوْلُ : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ ، كَانْ يُسَلِّم عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ » .

وَمِنْهَا : أَنَّه ﷺ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتَاً ، وَيَرَىٰ ضَوْءاً ، وَهُوَ لا يَرَىٰ المَصْدَر ، مِصْداقُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النبي ﷺ لِخَدِيجة ذَاتَ

يَوْمٍ : « إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءاً ، وأَسْمَعُ صَوْتاً ، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُوْنَ بي جَنَنٌ » .

قَالَتْ : لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَل ذَلِكَ بِكَ يَا بن عَبْدِ الله!

ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنْ يَكُ صَادِقاً ؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلَ نَامُوسِ مُوْسَىٰ ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنا حَيٌّ ، فَسَأُعزِّرُه ، وَأَنْصُرُهُ ، وَأُوْمِنُ بِهِ .

وَمِنْها كَذَلِكَ : الرُّؤْيا الصَّادِقَةُ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُ عائشَةَ ـ رضي الله عَنْها ـ : أَوَّلُ مَا بُدِىء بِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْي الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْم ، فَكَانَ لا يَرَىٰ رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ .

* * *

حُبُّهُ ﷺ لِلْخَلْوَةِ

وَمِنْ كَثْرَةِ الهَمِّ الثَّقِيْل الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا آلَ إِلَيْهِ وَضْعُ المُجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ ، فَلا العَقِيْدَةُ عِنْدَهُمْ سَلِيْمَةً ، وَلا التَّعَامُلُ فِيْمَا بينهم سَلِيْماً ، ولا هُمْ يَسِيْرُونَ عَلَىٰ نَهْجِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُصْلِحِيْنَ.... ، كُلُّ ذَلِكَ جَعَلَ الرَّسُوْلَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ يُحِبُّ الاعْتِزَالَ ، والابتِعَادَ عَنْ هَذَا المُجْتَمَعِ الفَاسِدِ ، فَكَانَ يَتْرُكُ مَكَّةَ ، وَيَصْعَدُ إلىٰ غَارٍ في جَبَلِ حِرَاء ، فَيَجْلِسُ فِيْهِ ساعاتٍ ، وسَاعَاتٍ ، يَدْعو اللهَ أَنْ يُخَلِّصَهُ ، وَيُخَلِّصَ النَّاسَ مِنْ ذَلِكمُ

الكَابُوسِ ، وَيَتَفَكَّرُ في آلاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وفي خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ ، ويُردِّد بعضَ ما سمعهُ من الأحنافِ...

حَتَّىٰ إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ لِلنَّاسِ الهِدَايَةَ ، أَنْزَلَ بِدَايَاتِ الوَحْي عَلَىٰ قَلْبِ خَاتَم الأَنْبياء عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *